

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين

للدكتور/ عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس^(١)

توطئة :

تاريخ القرآن مع مختلف أجيال المستشرقين موغل في القدم، فمنذ ظهور حركة الاستشراق قبل قرون، كان القرآن الكريم أول هدف اتجهت إليه جهود هذه الحركة، فتوالت ترجماته إلى شتى اللغات الأوروبية، وبعد نقله إلى هذه اللغات ظهرت الحاجة إلى استيعابه بالقدر الذي ييسر للغربيين فهم الدين الذي تعتنقه الأمة التي فشلت الحروب الصليبية في احتوائها وتنصيرها.

وقد كتب عن الاستشراق والمستشرقين الكثير من الأدبيات التي عرضت بالبحث والتنقيب لتاريخ الحركة وأغراضها ووسائلها ورجالها والآثار التي خلفتها، حتى أصبحت هذه الأدبيات اليوم تستعصي على الحصر.

ولا يهمننا في هذه الدراسة تراث المستشرقين المتصل بالقرآن الكريم بحد ذاته، أو المتعلق " بعلوم القرآن " كما هو متعارف عليها

(١) الأستاذ بكلية الآداب، جامعة القاضي عياض، بني ملال المغرب .

اصطلاحاً — بل غايتها تتبع كتابات هؤلاء عن موضوع " تفسير القرآن الكريم " مع إبراز مواقفهم من التراث التفسيري المتراكم ثم تصورهم لما يجب أن يكون عليه منهج التفسير حسب معتقداتهم الخاصة.

أما أهمية هذا الموضوع فتظهر بالنظر إلى مسألتين :

أولاً : أن موضوع " التفسير في كتابات المستشرقين " قلَّ أن يستهوي أحداً ممن بحث في الظاهرة الاستشراقية، فباستقراء ما نُشر في نقد وتحليل مواقف المستشرقين وآرائهم، بخصوص القرآن نجد بأن الجهود تصرف للرد والتعقيب على مختلف المطاعن المتكررة والتقليدية التي يرددها المستشرقون عن " طريقة جمع القرآن " وعن " القراءات القرآنية " وعن " ربانية مصدر القرآن " ... ومن النادر أن تلتفت هذه الجهود إلى موضوع التفسير بحد ذاته .

ثانياً : كما تظهر أهمية الموضوع في كون الكتابات الاستشراقية لم تهتم بعلم التفسير إلا في العقود الأخيرة، فلم يسبق لهذه الكتابات أن تعرضت لمناهج تفسير القرآن، ولا لنقد التراث التفسيري أو تقويمه إلا ابتداء من منتصف القرن العشرين لأسباب سيأتي بيانها، فالموضوع تبعاً لذلك جدُّ حديث .

وقد قُسمت هذه الدراسة إلى أربعة مباحث، يسبقها مبحث تمهيدي. خصص البحث الأول للكلام عن المنشورات التي أصدرها المستشرقون وعرضوا فيها آراءهم الخاصة المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى.

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

والمبحث الثاني : أفرد لجهود المستشرقين المبذولة من أجل هدم ونقض علم التفسير وبخاصة ما تعلق منها بأهل السنة .

والمبحث الثالث : كان استعراضا للطريقة التي يسعى المستشرقون لنشرها حتى تصبح المنهج المعتمد لفهم القرآن وتفسيره .

أما المبحث الأخير فهو مخصص لتقويم كتابات المستشرقين وآرائهم بخصوص علم التفسير، ولم أعرض في هذه الدراسة لتلاميذهم من أبناء المسلمين؛ لأن ذلك يحتاج لموضوع مستقل.

نسأل الله العون والسداد والرشد وأن يعلمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، والله من وراء القصد .

مبحث تمهيدي

إنه مما لا خلاف فيه أن كتابة المستشرق عن القرآن وتفسيره لم يكن في يوم من الأيام بغرض الإيمان به، أو لغاية تقيده ممن لا ينطقون العربية ..، كما لم يكن ذلك بهدف التعريف بدين الإسلام أو نشر ثقافة صحيحة عن هذا الدين ... وإنما كانت جهود المستشرقين تتجه لغايات أخرى يُستتر عليها بثوب زور يصطلح عليه " بالبحث العلمي " و " الأكاديمي " ...

ولو استقرأنا ما حرّره المستشرقون عن القرآن خلال قرون، وما نشره عن التفسير خلال العقود الأخيرة، ما كنا نحتاج إلى كبير عناء وبُحْث، لكي نصل إلى المعتقد الذي ظل يحكم تعاملهم مع الدراسات القرآنية، وهو قناعتهم التقليدية ببشرية كتاب الله تعالى،

والمستشرق — وقد أشرب إنكار ربانية القرآن — يسعى بدهاء كي يبرهن من خلال كتاباته عن هذا المعتقد، يستوي في ذلك متعصبتهم، ممن يكشفون عن أراجيفهم صراحة، مع أولئك المستشرقين الذين قادهم الدهاء إلى تغليف دعاويهم ببشرية القرآن بشق الأساليب الملتوية .

المطلب الأول : القرآن الكريم في تصورات المستشرقين

لعل مما تقتضيه الموضوعية العلمية والإنصاف أن نقرر في هذا المطلب مدى التصاق المستشرقين بأرائهم وتصوراتهم الذاتية التي يضيفونها على مواد كتابتهم، ثم إنهم لا يرون في عملهم ذلك إخلالاً بالموضوعية أو انحرافاً عن جادة " البحث العلمي .. " ، ومن أبرز ما يظهر ذاتية المستشرقين في مختلف كتاباتهم عن الإسلام تلك المواد التي حرروها " للموسوعة الإسلامية " التي صدرت طبعها الأولى بين ١٩١٣ - ١٩٤٢م بثلاث لغات أوربية، وبإمكان القارئ العربي أن يطالع على طائفة من تلك المواد في الأجزاء المترجمة من هذه الموسوعة - خلال عقد الستينات - حيث يلاحظ أن المترجمين اضطروا إلى إدراج تعليقات هامشية على الآراء المنحرفة التي تقصدها محرروا الموسوعة، وعلى الأخطاء العلمية والجهالات والتهم الواهية التي تضمنتها المواد المحررة من قبل المستشرقين، فعلق على مادة الحديث الشيخ أحمد شاكر رحمه الله كما نجد تعاليق غيره، أمثال مصطفى عبدالرازق وإبراهيم مذكور وغيرهم، وأحياناً يكون التعليق أطول من المادة بكثير.

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

ونظراً لأن هذه الموسوعات غدت في السنوات الأخيرة مصادر علمية عند الغربيين وعند طائفة من المسلمين فمن الأفضل الرجوع إليها أولاً لمعرفة تصورات المستشرقين بخصوص القرآن الكريم .

ففي النشرة الحديثة " لموسوعة الإسلام " الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١م، وأعيد طبعها عام ١٩٨٦م، نجد المستشرق " ويلتش " محرر مادة قرآن يقول في المبحث الذي عنوانه بقوله « محمد والقرآن » :

اعتباراً لوجهة نظر أهل السنة (الأرثوذكس)^(١)، فإن القرآن تلقاه محمد من الله، وحيا على طريق جبريل، بدون أن يكون فيه دخل لأحدهما، لكن تحليل نص القرآن يبين وضعيته المركبة. ففي المقاطع الأولى منه ليس فيها ما يدل على مصدره، وفي مقاطع غيرها لا يوجد ما يدل على ربانية الرسالة، وفي أخرى يظهر أن محمداً هو الذي يتكلم، بل تضمن القرآن مقاطع وردت فيها الإشارة إلى إله محمد بضمير الغائب ... إن هناك آيات مدنية كثيرة تشعرنا بأن محمداً يبحث بفاعلية، من أجل استقاء معلوماته عن اليهود.. وفي هذه المقاطع لا يصعب علينا أن نرى محمداً يأخذ قصصاً ومعلومات من مصادر متعددة، بخاصة من اليهود والنصارى، ثم يعيد صياغة

(١) الأرثوذكس مصطلح ارتبط في الآداب اللاتينية بالكنيسة الشرقية، أما دلالة في اللغات الغربية فتتصرف إلى صفة الجمود والانغلاق في أمور الدين؛ ومن خلال سياق وروده في كلام المستشرق ويلتش فإنه استعمل كناية عن جمهور أهل السنة من المسلمين .

ذلك في القرآن .. (١) .

أما في النشرة الفرنسية " للموسوعة الكونية " الصادرة عام ١٩٩٠م فإننا نجد المستشرق " كلود ثكايبو " حين كتب عن تفسير القرآن: يصرّح في مبحث عقده للكلام عن " تشكيل متن القرآن " بأن المصحف تشكل من آراء الفقهاء وأحكامهم، خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، وعبثاً عمد " ثكايبو " إلى اقتباس آراء طائفة من المستشرقين الذين تبّنوا هذا البهتان، ليخلص في نهاية مبحثه إلى استنتاج مفاده: أن اختلاف مرويات القراءات التي تلقاها أصحاب محمد - القراءات الشاذة والمشهورة - يرجع في أصله إلى الحاجة لإدراج حواشي أو شروح، تتضمن تشريعات قديمة لنص لم يتم إنهاء جمعه، قبل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي (٢)، والذي يتتبع كتابات المستشرقين في هذا الموضوع يقف على تصورهم الخاص الذي دافعوا عنه لتأكيد بشرية مصدر القرآن، لذلك حين كتبوا عن القرآن نظروا إليه على اعتبار أنه أثر أدبي محض، وقد وجد منهم من اعتبره دون التراث الأدبي العربي والعياذ بالله (٣) .

(1) A. T Welch Al KUR'AN in encyclopedie de I'slam Tome 5 P404 30 1986, maison neure et larose Paris .

(2) Claude Gilliot, L'exegese du Coran et tes recherches contemporaines in "Encyclopaedia Universalis," corpus 6 P548, Ed 1990, Paris .

(3) voir a ce sujet: Theodor Noldeke, Remarques critiques sur le style et la. du Coran P:5 et 6, maisonneuve, Paris 1953,

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

وتماشياً مع هذا التصور الذي ينكر ربانية القرآن، وجدنا المستشرقين يدجون دراساتهم عن كتاب الله ضمن مؤلفاتهم عن تاريخ الأدب العربي^(١)، كما وجدناهم وقد استغرقهم البحث في موضوع الترتيب النزولي للقرآن^(٢).

المطلب الثاني: بداية اهتمام المستشرقين بالتفسير

اتجه المستشرقون إلى تحقيق كتب التفسير، في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث حقق الألماني " فرايتاج ت ١٨٦١م " أسرار التأويل وأنوار التنزيل ((ونشر في ليزيغ عام ١٨٤٥م، وحقق الإنجليزي وليم ناسوليز ت ١٨٨٩م)) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" ونشره خلال أربع سنوات ١٨٥٦ — ١٨٥٩ م ..

traduction G. H. Bousquet .

(١) انظر: على سبيل المثال لا الحصر: ريجس بلاشير، تاريخ الأدب العربي ج: ٢
R. Blachere , Histoire de la littérature Arabe de origines à La
Fin du xv siècle de J.c Tome 2 P188 ect.. Librairie d'
Amerique et d'ovient, Paris 1980 .

(٢) اشتهر بهذا الموضوع نوادكه ثم بلاشير وويل وانظر في ذلك :
R. Blachere, Introduction aus coran P248-263, 2: ed 1977,
maisonneuve et larose Paris .

وقد أدى العجز عن تتبع الترتيب النزولي للقرآن بهذا المستشرق إلى أن يعتذر عن عجزه بقوله بأن آيات القرآن ظلت محلاً للتقليب والنقل بصفة مستمرة دائمة مما تعذر معه حفظ تاريخ نزولها عن طريق الذاكرة التي كانت الأداة الأساسية للحفاظ على الوحي زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - انظر المرجع السابق ص ٢٦٠ .

ثم انصرف المستشرقون بعد ذلك إلى التأليف في التفسير الموضوعي وأكثروا منه، فنشر الهولندي " فان جنيب " إبراهيم في القرآن " ضمن مجلة العالم الإسلامي ١٩١٢م، ونشر " الألماني " أدلف جروهمان " عيسى في القرآن " ضمن الجريدة الشرقية ١٩١٤م، ونشر رافلين "القانون في القرآن " عام ١٩٢٧م، ونشر جوتين " الصلاة في القرآن " عام ١٩٥٥ ..

أما فيما يتعلق بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير - وهو موضوع اهتمامنا - فقد اتجه إليه المستشرقون منذ مطلع القرن العشرين، وتوسعت دائرة اهتمامهم به ابتداء من منتصف هذا القرن. فنشر الإنجليزي " هورسفيلد " بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره " لندن ١٩٠٢م، ونشر الفرنسي " كليمان هوار " وهب بن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن " ضمن الجريدة الآسيوية باريس، عدد سبتمبر أكتوبر ١٩٠٤م، ونشر الألماني " فيشر " تفسير القرآن " ضمن نشرة الدراسات الشرقية ١٩٠٦م، ونشر اجنتس جولد تسيهت ١٩٢١م، مذاهب التفسير الإسلامي " ونشر ريتشارد هارتمان " تفسير القرآن " في مجلة الدراسات الشرقية ١٩٢٤م، ونشر الإيطالي جويدي شرح المعتزلة للقرآن ١٩٢٥م، وكتب " أرثر جفري " أبو عبدة والقرآن " نشر في عالم الإسلام ١٩٣٨م ..

وابتداء من منتصف القرن العشرين بدأت دراسات المستشرقين عن مناهج واتجاهات التفسير تأخذ بعداً آخر، انطبع

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس
بطرق دراسة التوراة والأنجيل في البيئة الغربية، فأصدر جاك جويمير
" تفسير القرآن عند مدرسة المنار " ١٩٥٤م، كما نشر عن " الطنطاوي
جوهرى وتفسيره الجواهر " ونشر ج. بالجون بلندن " تفسير القرآن في
العصر الحديث " ١٩٦١م، ونشر ب نوييا " التفسير القرآني واللغة
الصوفية " ١٩٧٠م، ونشرت ترجمة " القرآن : نزوله وتدوينه وترجمته
وتأثيره " لبلاشير ١٩٧٤م^(١) ونشر ويلتش " القرآن وتفسيره بلندن
١٩٧٦م، ونشر ج منوت " مدخل إلى التفسير ١٩٨٢م^(٢) ونشر
بروما ١٩٨٤-١٩٨٥م ضمن ملفات " الدراسات العربية " مختارات
من كتابات المستشرقين عن تفسير القرآن^(٣) ونشر كلود ثكايو ضمن
النشرة الإنجليزية ١٩٩٠م " للموسوعة الكونية " عن " تفسير القرآن " و
القرآن في ضوء الدراسات المعاصرة^(٤) .

وفي العقود الثلاثة الأخيرة بدأ يغلب على دراسات
المستشرقين للتفسير منحى يرى ضرورة إخضاع تفسير القرآن لمناهج
التحليل في العلوم الإنسانية وهكذا في مرحلة أفول الاستشراق انتهى

(١) ريجس بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، الطبعة الأولى ١٩٧٤م،
دار الكتاب اللبناني بيروت، ترجمة: رضا سعادة؛ والكتاب في أصله جزء من
"تاريخ الأدب العربي" القسم الثاني المشار إليه في الإحالة التي قبله .

(2) 6 monnot, Islam: exegese Coranique in annuaire E.P.H.E
Tome 91 P: 309-319 annee 1982-1983 .

(3) "Le Commentaire Coranique" in: Etudes Arabes, Dossier
67-68 (1984-1985), Roma .

(4) Encyclopaedia Uinversalis, Gorpus 6, P 543-548.

الحال بالمستشرقين إلى البحث عن وسائل لإعادة إحياء وإنعاش ماضيهم التاريخي عن طريق المطالبة بتطبيق معطيات المناهج التغريبية على القرآن في أفق البحث عن " تاريخ النص القرآني " ثم إعادة قراءته أو تفسيره من جديد !!!^(١) .

المطلب الثالث: أسباب اهتمام المستشرقين بالتفسير ودواعيه

سبقت الإشارة إلى أن اهتمام المستشرقين بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير هو وليد القرن العشرين : ظهر في مستهله وتوسع في منتصفه وكثرت الكتابة فيه خلال السبعينات وتراجع هذا الاهتمام الآن بسبب هلاك مشاهير أساتذة الدراسات الشرقية بالغرب وقلة المهتمين بهذا المجال من الباحثين الأوربيين الناشئين مما ضاعف أزمة الحركة الاستشراقية التي لازال أقطابها الأحياء يبحثون عن وسائل إنعاشها^(٢) .

وقد ألمح المستشرق بلاشير في مقدمة أحد كتبه - بما لم يكن يرغب في التصريح به - إلى أن اهتمام المستشرقين بالقرآن : ترجمة ودراسة، كان موجهاً لغاية أساسية هي فهم البيئة الإسلامية ومعرفة العالم الإسلامي^(٣)، وهذه المعرفة والفهم هما اللذان سيؤسس عليهما

(1) Ibid, P 547.

(٢) انظر في هذا الموضوع :

Claude Caheu et Charles Pellat, les Etudes Arabes et Islamiques, in Journal Asiatique Tome CCLX1, annee 1973 (Paris) P: 89 .

(٣) قال بلاشير في " القرآن: نزوله وتدوينه.. " ص ٢٠: " وقد أتيح للعالم

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

الغرب سبل السيطرة على الشعوب الإسلامية، لكن بعد عقود من الجهود المضنية ظهر أن المخططات الغربية أخطأت الطريق، فأراد المستشرقون تصحيح المسار بما يثبت أقدامهم في حقل الدراسات الإسلامية، ويمكنهم من الإسهام بشكل أو بآخر في توجيه المسلمين، وأدت بهم " السذاجة " إلى أن يجعلوا أنفسهم أندادا لأئمة تفسير القرآن، وظهرت هذه الدعوى بوقاحة في كتاباتهم ابتداء من عقد السبعينات من القرن العشرين .

وإذا كان التيار البروتستانتي في الكنيسة الغربية قد بنى دعوته " للتجديد الديني في أوروبا على اعتبار أن فهم الدين والكتاب المقدس ليس وقفاً على رجال الكنيسة وحدهم، وإنما يتجاوزهم إلى غيرهم ممن أوتوا سعة في الأفق ونفاذاً في الإدراك، وعمقا في المعرفة والفكر، فلماذا يبقى تفسير القرآن خاصاً بعلماء الإسلام وأئمة الدين من المسلمين؟! "

من هنا بدأت تلك الدعوى النشاز، إلى دراسة القرآن دراسة أدبية " كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة، وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً، وفاء بحق هذا الكتاب، ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل، بل هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً

= الأوربي خلال ثلاثة قرون من الزمن وبفضل هذه التراجم - أي ترجمات القرآن - أن يفكر بأنه قد ملك المفتاح لحديقة سرية كان يحلم بدخولها" .

ولو لم تنطو صدورهم على عقيدة ما فيه، أو انطوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس^(١).

يمثل هذه الدعوى تمسك المستشرقون المعاصرون، فدعوا إلى تغيير أصول تفسير القرآن وقواعده وآدابه، وتبّوا موقفاً هدمياً من مختلف مصنفات التفسير التي كتبها وجمعها الأئمة الأعلام، ثم وضعوا لأنفسهم منهجاً غريباً لقيطاً أرادوا أن يخضعوا له التفسير، أملين أن يعيدوا صياغة دين متجدد، وإسلام متطور، وتفسير للقرآن خاضع للأهواء وسيتم التعرض لمنهجهم في مبحث لاحق^(٢).

المبحث الأول : منشورات المستشرقين المتصلة بدراسة التفسير

نشط المستشرقون في أعمال النشر بدرجة قل نظيرها،

(١) أمين الخولي، "التفسير" مقال نشر تعليقاً على الترجمة العربية "لدائرة المعارف الإسلامية" ج ٥ ص ٣٦٦، وقد نشر هذا المقال في كتاب للحوالي بعنوان "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب"، الطبعة الأولى دار المعرفة ١٩٦١م، ونشر أيضاً في رسالة مستقلة عن "التفسير: معالم حياته منهجه اليوم".

(٢) قال هاملتون جب في مقال نشره عام ١٩٣٢م موجهاً المستشرقين في هذا المنهج: "لكن الأجيال الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى أكثر من هذا القول، فيجب أن تثبت لها أن لاشيء في القرآن من التناقض ولا من الباطل..، وأن الفكر العلمي أو الروائي التاريخي المعاصر لم يكتشف شيئاً يعارض سلطة القرآن وأوامره، لنصل بها إلى نتيجة لا نبليها إلا إذا اعتمدنا على القول بأنه من كلام الله، وبأنه لا يجوز الخوض فيه قليلاً أو كثيراً..، فالمطلوب أساساً هو التأويل..". هـ جب، الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٢٦، نشر مكتبة الحياة ١٩٥٤م، ترجمة كامل سليمان.

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

وأستطيع أن أقرر أن المجال الذي نجح فيه هؤلاء ليس هو مجال البحث العلمي ولا هو ميدان التكوين الأكاديمي ولم ينجحوا أيضا في مجال الاختراق الثقافي والعقدي...، إنما نجحوا في ميدان النشر والتوزيع على نطاق واسع .

ونظراً للإمكانيات المادية والمعنوية، التي ترصد لهم وللأكاديميات والمجامع، التي يعملون في إطارها فلا زالوا يستطيعون نشر أو إعادة نشر كتاباتهم، وأيضاً ترجمتها سواء كان ذلك بالغرب أو بالبلاد الإسلامية نفسها^(١) .

وبخصوص كتاباتهم عن التفسير فقد كانت متنوعة فهناك التأليف المستقل، وهناك الأبحاث والمقالات التي تقدم للمؤتمرات أو تنشر ضمن مختلف الدوريات العالمية، وأخيراً هناك تلك المواد المحررة للموسوعات ودائرة المعارف .

المطلب الأول: التفسير في التأليف الفردية الخاصة

وتشمل هذه التأليف نوعين من الكتابات :

(١) ومما له أكثر من دلالة أن نجد "كتاب تراث الإسلام" "The Legacy of Islam" المنشور في إكسفورد بالإنجليزية عام ١٩٧٤م لجوزيف شاخت وكليفورت بوزورت ترجم إلى العربية وأصدره المجلس الوطني للثقافة بالكويت في ثلاثة أجزاء عام ١٩٧٨م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٨م، ليطبعه المجلس مرة ثالثة في جزئين عام ١٩٩٨م.

ومن هذا القبيل أيضاً مجلة "هسپيريس" "HESPERIS" التي أشرف المستشرقون الفرنسيون على إصدارها بالمغرب منذ عام ١٩٢١م، أعيد طبع أعدادها التي نفذت، حيث تم نشرها في عقد الثمانينات ضمن سلسلة من المجلدات .

الأول : يتضمن الرسائل والأطروحات التي تقدم للجامعات من أجل نيل الدرجات العلمية، والكتابات التي يؤلفها المستشرقون باعتبارها " أبحاثاً " ودراسات ينشرونها ضمن أنشطتهم المختلفة .

والنوع الثاني : هو الأهم المؤلفات التي أصبحت مصادر لأخذ المعرفة في موضوع التفسير رغم ما احتوته من أوهام وأضاليل وأحياناً يتجاوز الأمر البيئة الغربية، لنجد لهذه المؤلفات مصداقية علمية حتى في العالم الإسلامي، فتطبع هذه الكتب وترجم ويستدعى أصحابها، ليحاضروا في المؤسسات العلمية التابعة للبلدان الإسلامية، وحتى في حالة وفاتهم، نجد من المؤسسات الثقافية من يسهر على ترويض هذا التراث ...

ومن أشهر كتابات المستشرقين عن التفسير كتاب جولد تسيهرت ١٩٢١م عن " مذاهب التفسير الإسلامي " الذي ترجم إلى العربية مرتين الأولى: قام بها د. علي حسن عبدالقادر، والثانية: أنجزها د. عبدالحليم النجار عام ١٩٥٤م، وقد كان هذا الكتاب ولازال من المراجع الرئيسية، التي يأخذ منها الدارسون رغم تعصب مؤلفه ضد الإسلام والقرآن، ورغم الكثير من الأخطاء العلمية والجهالات التي تعمدتها المؤلف^(١)، فضلاً عن ذلك نجد لكتاب "مذاهب التفسير" مكانة فريدة في أوساط المستشرقين، كما نجد

(١) كتب الشيخ أحمد شاکرت ١٣٧٧هـ، عن ذلك مقالة نقدية نشرت في مجلة المقتطف عدد دجنبر ١٩٤٤م ص ٤٦١-٤٦٣، كما عرض للموضوع في تعليقه على مادة "حديث" ضمن دائرة المعارف الإسلامية ج٧ ص ٣٣٣، ٣٣٤ .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

لصاحبه سمعة علمية مصطنعة، حتى أننا نصادف المستشرق جوينبول محرر مادة (حديث) في " دائرة المعارف الإسلامية"، يعتبر العلم مديناً ديناً كبيراً لما كتبه جولد تسيهر^(١)، ونجد المستشرق كاراديفو محرر مادة (تفسير) في نفس الموسوعة يستظهر بأقواله^(٢)، ولا زالت افتراضاته الخاطئة في هذا الكتاب تؤخذ على أنها مسلمات علمية حتى الآن .

بعد كتاب تسهير تأتي في الدرجة الثانية تأليف المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير ت ١٩٧٣م، وقد اكتسبت كتابات هذا الرجل عن التفسير قيمتها وسط دوائر المستشرقين والمتغربين لأسباب ثلاثة :
الأول: طول مدة إقامته في العالم الإسلامي، وبخاصة في المغرب ثم تدريسه هناك .

الثاني: كثرة تلاميذه من أبناء المسلمين في المشرق والمغرب، حيث أشرف على عدد من الرسائل التي أنجزها الطلبة العرب بالجامعة الفرنسية ..

السبب الثالث الذي أضفى عليه المصداقية العلمية: دخوله للمجامع العلمية العربية. وقد اشتهر من كتاباته عن القرآن مؤلف " مدخل إلى القرآن " بالفرنسية، لكن أوسع ما ألفه عن التفسير تلك المباحث التي كتبها ضمن الجزء الثاني من " تاريخ الأدب العربي " التي استلت

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج٧ ص ٣٣٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص ٣٤٧ .

من الكتاب الأصلي، ونقلها إلى العربية: رضا سعادة وصدرت طبعتها الأولى عام ١٩٧٤م، وهي نفسها المنشورة ضمن " الموسوعة الكونية" في المبحث الأول لمادة (قرآن)^(١) .

المطلب الثاني: التفسير في الموسوعات الاستشرافية

تقوم فكرة الموسوعات على جمع مختلف المعلومات المتعلقة بمجال معين كالآداب أو التاريخ أو الطب .. ثم ترتيب مواد ما تم جمعه، والقيام بتحرير تلك المواد مع مراعاة التركيز والاختزال ودون الإخلال بما تتطلبه الموسوعة والإلمام بالمادة .

وقد ظهرت فكرة كتابة " موسوعة الإسلام " في مؤتمر المستشرقين العاشر بسويسرا عام ١٨٩٤م، لكن لم يتم البدء في إصدار أجزاء هذه الموسوعة إلا في ١٩١٣م، وتوالى صدور أجزائها حتى سنة ١٩٤٢م حيث اكتملت بثلاث لغات هي الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وفي المؤتمر الحادي والعشرين للمستشرقين - باريس ١٩٤٨م - تم إقرار مشروع الطبعة الثانية المنقحة لهذه الموسوعة^(٢)، وقد وجدت هذه الموسوعة رواجاً في العقود الأخيرة، فصدرت الطبعة الفرنسية المنقحة في الستينات وأعيد طبعها عام ١٩٨١م ثم بعد ذلك عام ١٩٨٦م، هذا دون عدد ما صدر بالإنجليزية .

(1) R.Blachere, Du message au "fait Coranique" in Ency. universalis" Corpus 6 P: 540 - 543 .

(٢) د. محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ٢٠٠-٢٠٢، ضمن سلسلة "عالم المعرفة" عدد ١٦٧، الكويت ١٤١٣هـ .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

أما الترجمة العربية لهذه الموسوعة فقد ارتبطت بإبراهيم خورشيد، وأحمد الششناوي وعبد الحميد يونس، حيث اعتمدوا فيها على مواد الطبعة الأولى، فابتدأ صدور الأجزاء التي ترجموها مع التعليق عليها عام ١٩٣٣م إلى غاية ١٩٦٥م وتوقفوا عند حرف الطاء كما هو واضح في الموسوعة التي نشرت بعنوان " دائرة المعارف الإسلامية " فضلاً عن هذه الموسوعة المختصة بالإسلام، نجد المستشرقين يستأثرون بتحرير المواد المتعلقة بالإسلام وعلومه في مختلف الموسوعات العامة التي تصدر بشتى اللغات في مختلف الدول، وأشهر هذه الموسوعات :

١- موسوعة " الديانات والأخلاق "

٢- الموسوعة الكونية .

أما عن موضوع " التفسير " في هذه الموسوعات المختلفة، فقد حرر مادته في الموسوعة الاستشراقية الأولى (١٩١٣-١٩٤٢) المستشرق كاراديفو، وما كتبه عن التفسير جد تافه، كان فيه عالة على المستشرقين الحاقدين جولد تسهير ولامنس، وقد ترجمت هذه المادة ضمن " دائرة المعارف الإسلامية " ^(١) ومعها تعليق أمين الخولي .

أما في الطبعة الثانية المنقحة من هذه الموسوعة - صدر الجزء الأول منها ١٩٦٠ - فقد لجأ المستشرقون إلى التوسع في المواد إلى درجة أن مادة (قرآن) التي أسند تحريرها للمستشرق ويلتش

(١) كراديفو، مادة تفسير، دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص ٣٤٦-٣٤٨ .

تضمنت تسعة فصول بمباحثها وجاءت في إحدى وثلاثين صفحة من القطع الكبير المكتوب بخطوط دقيقة^(١)، وهذا دون الكلام عن الذبول المرفقة بالمادة التي حررها مستشرق آخر...

أما في "موسوعة الديانات والأخلاق" فقد حرر مادة "تفسير" الألماني شلاير ماخر، حيث كتب عن المادة من منظور وضعي، إذ لافرق عنده بين تفسير القرآن، والأناجيل والتوراة وسائر النصوص الأدبية الصرف^(٢)، وقد اقتبس منه أمين الخولي هذا التصور، وظهر ذلك جلياً فيما حرره الخولي تعليقاً على كاراديفو في "دائرة المعارف الإسلامية"^(٣).

أما في "الموسوعة الكونية" الصادرة بالإنجليزية، فنجد مادة (قرآن) في الطبعة المترجمة إلى الفرنسية عام ١٩٩٠م مقسمة إلى مباحث ثلاثة: الأول منها: عن "رسالة القرآن من تحرير بلاشير، والمبحث الثاني: عن تاريخ التفسير، والثالث: عن القرآن والدراسات المعاصرة، وكلاهما من تحرير كلود كايو، ولا نجد في المادة كلها إلا امتداداً لذلك التراث الاستشراقي القاصر علمياً المتعصب دينياً.

هذا وبما أن عصر الموسوعات قارب على الانتهاء، واحتل

(1) A.T. Welch, Al KUR'AN, In encyclopedie de L'Islam Tome 5,P: 401 -431 .

(٢) انظر في الموضوع: ماكتبه د. السيد أحمد خليل، دراسات عن القرآن ص ١٣٧-١٤٣، طبعة ١٩٦٩م، دار النهضة العربية بيروت .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٣٤٨-٣٧٤ .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

مكانه ما يصطلح عليه " بأطلس " العلوم المختلفة، فقد وجدنا هؤلاء المستشرقين يتسابقون لتحرير مواد أطلس الديانات، بخاصة وأن هذا التصنيف الجديد يتم نقله في أقراص الحاسوب، بالإضافة إلى كونه مؤهلاً ليدخل ضمن شبكات المعلومات، عبر برامج الإنترنت وما قد يجد بعد عصر الإنترنت ^(١) .

المطلب الثالث : التفسير في المجلات والدوريات الاستشراقية

دأب المستشرقون على كتابة المقالات والدراسات في شتى المناسبات: كالمشاركة في الندوات أو المؤتمرات، أو الأيام الدراسية أو في ذكرى تأيين أحدهم، أو في الاحتفال بمؤسستهم وجمعياتهم، وقد تكون هذه المشاركة عبارة عن ورقة بحث أو محاضرة أو مداخلة مرتجلة، وبسبب حرص المستشرقين على توثيق أعمالهم ، فقد كانت جميع أعمالهم تأخذ طريقها إلى النشر بمجرد تحريرها.

(١) تتألف شبكة الأنترنت - اليوم - من تجمع لشبكات الكمبيوتر، وتوزع وحدات الخدمة المرتبطة بالشبكة في مختلف أنحاء العالم، ويستخدم الأفراد جهاز الحاسوب الشخصي للدخول إلى هذا النظام عبر شبكة الهاتف؛ وتظهر أهمية وخطورة هذا النظام في كونه وسيلة فعالة للنشر، وبإمكان أي مستشرق - أو غيره - أن ينشر أفكاره عبر الأنترنت عن طريق طبع المادة على الحاسوب وبعثها بالبريد الإلكتروني إلى أي موقع على الشبكة، إضافة لما سبق فإن الموسوعات المختلفة صارت توزع على الأقراص المدججة (CD Rom) بتكاليف منخفضة - مقارنة مع الموسوعات المطبوعة - وقد كان لاعتماد هذه الأنظمة على اللغة الأجنبية بالخصوص مناسبة لترويج تراث المستشرقين عن الإسلام في العالم كله بشتى اللغات وبدون تكاليف تذكر .

ولعل أهم وسائل النشر التي استفادت منها الحركة الاستشراقية: الجرائد والمجلات والنشرات.

فالجرائد الاستشراقية قد تصدر كل ثلاثة أشهر، ويشكل كل أربعة أعداد منها مجلداً، أما المجلات فهي مطبوعات دورية مختصة بمجال محدد من مجالات الدراسة، وقد تكون المجلة شهرية أو فصلية أو نصف سنوية أو حولية حسب انتظام صدور أعدادها. أما النشرات فهي مطبوعات، الغرض الأساسي منها هو التعريف بالمعهد أو المؤسسة أو الجمعية أو النشاط...

لكن البحث عن موضوع معين في هذه المطبوعات ليس عملاً سهلاً ميسوراً، لكثرة هذه المطبوعات واختلاف لغات كتابتها وندرة العديد منها، إلا في المراكز العلمية المجهزة، هذا فضلاً عن كون الفهارس التي أحدثت لهذه المطبوعات لا تفي دائماً بالغرض لتشعب الموضوعات وتداخل تخصصاتها...

وبالنسبة لموضوع التفسير فإن أول ما يجب على الباحث الحرص عليه في هذه المطبوعات: أن يلم أولاً بأسماء المستشرقين الذين اهتموا بالموضوع، فأحياناً يكون عنوان المقالة خادعاً، وأعطى مثالين لذلك اعتماداً على ما نشر ضمن "الجريدة الآسيوية" التي تصدر بباريس منذ ١٨٢٢م حتى يومنا الراهن.

فمن الجزء الرابع من السلسلة العاشرة من الجريدة الآسيوية عدد "سبتمبر" أكتوبر ١٩٠٤م نشر كليمان هوار مقالته المطولة عن

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

" وهب بن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن " وهذه المقالة تُعرف بالتفسير، وخلص صاحبها في خاتمته إلى توجيه الطعن " لجامع البيان " لابن جرير الطبري ^(١).

وفي نفس الجريدة عدد ٢٦١ (Celxi) الصادر ١٩٧٣م نجد مقالة عنوانها " الدراسات العربية والإسلامية " قدمها في الأصل: كلود كاهن وشارل بيلا لأحد الملتقيات الاستشراقية، وليس في المقالة شيئاً عن الدراسات الإسلامية، أو عن التفسير، لأن محرريها يهتمان بمجال الأدب فحسب ^(٢).

واعتباراً لما يقتضيه المنهج من عرض تحليلي لكتابات المستشرقين عن تفسير القرآن، فسيخصص الباحثان التاليان لتصورات المستشرقين لهذا العلم.

فنعرض أولاً: لمواقفهم من التراث التفسيري المتراكم حيث أنهم اتجهوا إلى نقض هذا التراث، ثم نعرض ثانياً: لدعوة متأخريهم

(1) Clement Huart, Wahb ben monabbih et la tradition Judeo-Chretienne au Yemen, In "Journal Asiatique," 10: Serie, Tome 4, Septembre-Octobre 1904, imprimerie nationale Paris .

(٢) كان كلود كاهن يكتب في موضوع التاريخ الاجتماعي للإسلام، ومن أشهر منشوراته: "تاريخ العرب والشعوب الإسلامية."؛ أما شارل بيلا فيكتب عن الأدب، حضر الدكتوراة في "الوسط البصري وتكوين الجاحظ" وكتب عن "تاريخ الأدب العربي"، ونشر للجاحظ "رسالة الترييح والتدوير" مع مقدمة بالفرنسية وترجم له "البخلاء" و "التاج في أخلاق الملوك".

إلى ما اعتبروه منهجاً علمياً جديداً لتفسير القرآن، يعتمد على معطيات العلوم الإنسانية كما هي بالغرب. تبعاً لذلك فإن تصورات المستشرقين وآراءهم في علم التفسير تشمل جانبين :

الأول: جانب هدمي يقصد إلى نقض علم التفسير جملة وتفصيلاً.
الثاني: إنشائي أو تأسيسي يقصد إلى ابتداع طريقة جديدة في التفسير، تتناسب مع مؤهلاتهم المعرفية، وأهدافهم من وراء الدراسات الإسلامية.

المبحث الثاني : موقف المستشرقين من التراث التفسيري المتراكم
 تحكمت في توجيه كتابات المستشرقين عن مختلف التفاسير عدة عوامل، فهناك أولاً تعاطفهم مع مختلف الفرق المنحرفة التي شهدتها تاريخ الفكر الإسلامي، ثم هناك معاداة جمهورهم لأهل السنة والجماعة ولأئمة الإسلام الذين ينتسبون إليهم، ثم هناك تعصبهم الأعمى لنصرانيتهم أو يهوديتهم، هذا فضلاً عن عامل آخر لا يقل أهمية هو غلبة الجهل باللسان على الأغلبية الساحقة من دارسي القرآن العربي المبين منهم .

المطلب الأول: وقوف مشاهير المستشرقين عند التفاسير المعاصرة
 سبقت الإشارة إلى أن اهتمام المستشرقين بدراسة مناهج التفسير واتجاهات المفسرين توسع في النصف الثاني من القرن العشرين، أما قبل ذلك فمن النادر أن نجد مستشرقاً يلتفت لهذا الموضوع أو يفرد بالكتابة خلا اجنتس جولد تسهير ت ١٩٢١م

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

وبعض من اقتبس كلامه من المستشرقين .

وحين نرجع إلى " مذاهب التفسير الإسلامي " لجولد تسيهر نجده خصص المبحث الأول عن " المرحلة الأولى للتفسير " للكلام عن القراءات والظعن فيها، وجمع طائفة من المغالطات بشأها، لينتقل بعد ذلك إلى المبحث الثاني عن " التفسير بالمأثور " فلم يأت فيه بشيء على الإطلاق؛ لأن غرضه هدم هذا التفسير لطغيان الروايات الواهية عليه، ثم انخرط جولد تسيهر في تفصيل الكلام عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير، ويظهر من خلال اهتمامه بها وتوسعه في دراستها أنها كانت مبتغاه الذي لأجله ألف كتابه.

فأفرد فصلاً لما اصطاح عليه " التفسير في ضوء العقيدة " أدرج فيه الكلام عن تفسير المعتزلة - أهل الرأي - ثم تفاسير الباطنية قديماً وحديثاً، سواء كان هؤلاء الباطنية من غلاة المنسوبين إلى التشيع (الإسماعيلية) أو من " ملاحدة المتصوفة " ...

ثم خصص فصلاً آخر لما أسماه " التفسير في ضوء الفرق الدينية " تكلم فيه عن التفسير عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية، وأتى فيه بافتراءات كثيرة وافتراضات ساذجة، وخلط بين مقالات وآراء الإمامية والإسماعيلية بطريقة ماكرة ...

أما الفصل الأخير فقد عنونه بـ " التفسير في ضوء التمدن الإسلامي "، وفيه توسع في الكلام عن التفسير عند محمد عبده وتلاميذه الذين سماهم " المعتزلة المحدثين "، والذي يقرأ هذا الفصل

يرى كيف تتبع تسيهر في صبر وأناة مختلف القضايا التي خالفت فيها مدرسة المنار جمهور أهل السنة في الاعتقاد والفروع، كما يستشف القارئ تلك العاطفة التي غلبت على هذا المستشرق وهو يحزر هذه الفصل، بل إن الملاحظ أن تفسير القرآن الحكيم (المنار) هو أكثر كتب التفسير وروداً في إحالات جولد تسيهر، هذه الإحالات التي تشمل أجزاء تفسير المنار من الأول حتى الرابع عشر حسب الطبعة القديمة .

ولما جاء المستشرقون المتأخرون وجدوا جولد تسيهر مهّد لهم طريق " البحث والدراسة "، ووجدوا في " مذاهب التفسير الإسلامي " دليلاً يتبعونه في مجال كتاباتهم عن التفسير، لكنهم زهدوا في التراث التفسيري القديم، الذي اكتفى منه جولد تسيهر بأسماء الكتب إذ لم يبحث عن غير ذلك، وتوقف هؤلاء المتأخرون عند التفاسير المعاصرة التي لم يعجبهم منها إلا تراث " مدرسة المنار "

فعمد المستشرق جاك جوميير (J.JOMIER) من رهبان الدومنيكان إلى تسجيل موضوع أطروحته للدكتوراة في السربون في موضوع " مدرسة محمد عبده في تفسير القرآن " وبعد ذلك نشر بباريس عام ١٩٥٤م كتاباً عن " تفسير القرآن عند مدرسة المنار " (١)، ثم نشر عام ١٩٥٨م دراسة عن " الطنطاوي جوهرية وتفسيره

(١) J.JOMIER, Le commentaire coranique du Manar, G.P, maisonneuve Paris 1954 .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

الجواهر" ضمن مختارات معهد الدومنيكان للدراسات الشرقية .
وبعد جويمير جاء المستشرق ج. بالجون فألف بالإنجليزية
كتابه عن " تفسير القرآن في العصر الحديث " وصدر الكتاب في
ليدن عام ١٩٦١م، وهذا المؤلف في جوهره عبارة عن بحث وصفي
لما اعتبره الكاتب " مناهج التفسير في زماننا الراهن " ^(١) والذي يبدو
من تتبع هذه الكتابات الاستشراقية أن أصحابها كان يعوزهم فهم
اللغة العربية التي ألفت بها التفاسير السابقة، ففضلوا تبعاً لذلك
الاحتماء بالتفاسير المعاصرة، لسهولة أسلوبها ووضوح عباراتها،
والخلاصة التي يمكن للمتبع الانتهاء إليها هي أن المستشرقين حتى
الآن عجزوا عن التعامل مع مناهج المفسرين المتقدمين، فاختاروا
الوقوف عند تفاسير بعض المعاصرين التي لم يستطيعوا إلا وصفها.

المطلب الثاني : إعلاء شأن التراث التفسيري المنحرف

كان كتاب " مذاهب التفسير الإسلامي " بعد صدوره عن
مكتبة بريل في ليدين عام ١٩٢٠م قد وضع للمستشرقين أصول المنهج

(1) J.M.s. Baljon, "Modern Muslim Koran interpretation 1880-1960".

وانظر في نفس الموضوع :

J.J. G Jansen, "The interpretation of The Koran in modern Egypt," to eyed 1974 .

هذا وقد عرض لطائفة من هذه الكتابات الاستشراقية د. عفت الشراوي في
" الفكر الديني في مواجهة العصر " .

والطريقة التي يجب أن يتعاملوا بها مع التراث التفسيري؛ واعتباراً لشخصية جولد تسيهر وأسبقيه كتابه فقد أضحى "مذاهب التفسير" مصدراً للدراسات الاستشراقية عن القرآن وتفسيره...، فهو منهل المستشرقين المتأخرين يقتبسون منه المادة ويقتفون أثره في المنهج، والغريب أنه رغم فقر الكتاب ومحدودية قيمته العلمية - إذا نظرنا إليه من خلال التراث التفسيري الذي بين أيدينا اليوم - ورغم إغراقه في التعصب...، إلا أن هذا الكتاب ظل يلهم مختلف المستشرقين الذين يكتبون عن التفسير حتى في نهاية القرن العشرين للميلاد^(١).

وحين نرجع إلى هذا المؤلف الذي تجاوزه الزمن - على الأقل من الناحية العلمية الصرف - بنجده - كما سلف - يظهر اهتماماً وتعاطفاً واضحاً مع مختلف الاتجاهات المنحرفة، التي شهدها تاريخ تفسير القرآن الكريم.

والمطلع على فهرس موضوعات الكتاب - وإن لم يقرأه - يرى كيف أن التفسير بالمأثور لم يستغرق كله إلا سبعاً وأربعين صفحة، كلها طعن في هذا الاتجاه، في حين أن تفسير المبتدعة من معتزلة وباطنية وشيعة - رغم محدودية هذا التراث - استغرق مائتين وسبع عشرة صفحة.

(١) منهم على سبيل المثال كلود كايو الذي حرر آخر مادة عن "التفسير" للموسوعة الكونية.

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

والسبب في اهتمام تسيهر بهذا التراث المنحرف، يرجع إلى ما يراه من أن تفسير هذه الطوائف خضع للتأثير الأجنبي، بخاصة تأثير عقائد أهل الكتاب .

ففي معرض كلامه عن تفسير المعتزلة، قال مشخصاً ذلك التأثير : ((وقد أمكن في وقت مبكر إثبات أن الأنظار والمسائل العقديّة التي كانت محل الاعتبار في القرنين الأولين عند علماء الكلام الإسلاميين، قد برزت تحت تأثير النشاط العقدي داخل الكنائس والفرق المسيحية الشرقية، لاسيما في سوريا التي تعد المرحلة الأولى في طريق هذا الاحتكاك))^(١) .

وقال جولد تسيهر في كلامه عن الباطنية : ((والحق أن مبادئ ونظريات المتصوفة وإخوان الصفا مشتركة بين كلتا الدائرتين، ومشتركة كذلك من بعض الجوانب. والوسائل التي يجعلون الإنسان بواسطتها يطمح إلى هدف الكمال أو الخبر الأعلى ... وإنما كان ذلك مشتركا بينهما؛ لأن جذورهما جميعا تمتد إلى الإفلاطونية المحدثة وإلى الغنوصية ..^(٢) .

امتدادا لما درج عليه جولد تسيهر من إعطاء مختلف تفاسير المبتدعة أهمية واضحة؛ وجدنا المستشرقين من بعده في سبيل إدراج

(١) تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص ١٧١، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، دار إقرأ بيروت، ترجمة د. عبدالحليم النجار .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

هذا التراث المنحرف الباطل ضمن تاريخ التفسير، ثم تقديمه على أنه النموذج الأمثل لتفسير القرآن^(١) وفي سبيل تلك الغاية وجدنا الدهاء الاستشراقي الماكر بلغ أوجه مع المستشرق بلاشير الذي أجهد نفسه كثيراً من أجل إثبات ما رآه أصلاً من أصول التفسير، قرر فيه ((أن التفسير في مبدئه بالذات يقر بالقيمة النسبية للشروحات، خاصة عندما تتعلق هذه الشروحات بمقاطع شديدة الغموض، ولقد قبلت التفسيرات المتعددة، كما قبلت القراءات المتعددة، شرط أن تنال هذه التفسيرات تأييد الإجماع. هنا نجد موقفاً فكرياً، يمدنا بمفاهيم غير متناهية لفهم القرآن في ضوء التطور التاريخي^(٢) وانطلاقاً من هذه الرغبة الجارحة في إعلاء التراث التفسيري المنحرف اهتمت دراسات المستشرقين ببعث آثار المبتدعة المنسوبة إلى التفسير، وليس من قبيل المصادفة أن يكتب المستشرق جويدي ت ١٩٤٦م عن " شرح المعتزلة للقرآن"^(٣) ويكتب نويبا عن " التفسير القرآني واللغة

(١) قال تسيهر في امتداح منهج المعتزلة وانحرافهم في التفسير وردهم للأخبار الصحيحة: "وواقع أن المعتزلة يسلكون طريقهم الخاص في دائرة التفسير المتصل بالعقائد، فهم لم يبالوا هنا أن يزيلوا من طريقهم ركاباً كبيراً من التصورات الشعبية، والآراء المروية، التي لا تتفق مع تصورهم المستنير للألوهية" مذاهب التفسير ص ١٣٥.

(٢) بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه.. ص ١١٣.

(٣) لم يقصد المستشرقون في كتابتهم عن تفسير المعتزلة إبراز الجوانب التي أبدع فيها هؤلاء بخاصة وقد عرف من بينهم طائفة من علماء البيان، وإنما كان ديدهم الاشتغال بالمسائل العقدية التي خالف فيها أهل الاعتزال جمهور أهل السنة.

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

الصوفية ..، ووصل الأمر أن وجدنا المستشرقين يحتفلون حتى بالكتابات المعاصرة التي سارت في نفس الاتجاه، وغير خاف على المتبع للموضوع طريقة استقباهم لأطروحة د. محمد أحمد خلف الله عن " الفن القصصي في القرآن " ..

المطلب الثالث : نقد المستشرقين لأهات التفاسير عند أهل السنة

منذ بداية القرن العشرين لم تدخر الحركة الاستشراقية جهدا للطعن في هذه التفاسير، فعمد كليمان هوارت ١٩٢٧م في مقالة نشرت بالجريدة الأسبوعية ١٩٠٤م إلى ادعاء أن التفاسير تتشكل من تراث أهل الكتاب، وخلص في مقالته إلى القول : " أن مقاطع كثيرة من الطبري ... مرتبطة بمثلها في سفر التكوين الذي يعرض للروايات اليهودية والنصرانية، وكان وهب بن منبه هو الطريق الذي انتقلت بواسطته هذه الآثار في نهاية القرن الأول الهجري (١)..."

بعد حوار وجدنا جولد تسيهر يتحامل على التفسير منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم حتى إذا انتهى به الكلام إلى ابن جرير الطبري لم ير في " جامع البيان " أكثر من " موسوعة للإسرائيليات "، ذلك أن أبا جعفر - حسب تسيهر - " يتوسع كذلك في استخدام المصادر اليهودية الأصل، فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، ولم يكن في ذلك لينال موافقة سلفه الذين سبقوه ...، بل إن كتابه أغزر

(1) C. Huart, Wahb ben monabbih... in Journal Asiatique, 10: Serie, Tome 4P: 350 .

الكنوز بالنصوص المنتشرة في الأوساط الإسلامية من مواد الإسرائيليات كذلك الأساطير النصرانية يرويها راجعا إلى وهب بن منبه " (١) .

وعند ظهور الطبعة الأولى من " الموسوعة الإسلامية " كانت حملة المستشرقين على التفسير في أوجها مما سمح لهم بالإعلان عن دعواهم بأن الأحاديث التي تضمنتها كتب التفسير كلها موضوعة . قال كاراديفو : " وعلم التفسير قديم قد يرجع تاريخه إلى صدر الإسلام، ويروى أن ابن عباس ت ٦٨هـ كان حجة في التفسير، وقد نسبوا إليه تفسيراً. وتساءل النقاد المحدثون (جولد تسيهر ولانس وغيرهما) عن قيمة الأحاديث الواردة في هذه الكتب الجامعة، ولم يصلوا بعد إلى رأي يعززها كثيرا، والظاهر أن أغلب هذه الأحاديث موضوع إما لتقرير مسألة شرعية وإما لأغراض كلامية، وإما مجرد التوضيح، بل قد يكون محض اللهو والتسلية. ويذهب النقاد المحدثون إلى أنه لا أمل في العثور في هذه التفاسير على أخبار صحيحة عن أسباب نزول القرآن وإذاعته في الناس " (٢) .

ولقد كان " جامع البيان " للطبري ت ٣١٠هـ أكثر كتب التفسير تعرضا للنقد عند المستشرقين حتى في السنوات الأخيرة حين نشر " بيير غودي " ترجمة فرنسية لما اعتُبر " مختصر تفسير الطبري "

(١) جولد تسيهر، مذاهب التفسير ص ١١١، ١١٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة " تفسير " ج: ٥ ص ٣٤٧ .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

عام ١٩٨٣م فإننا نقرأ في تقديم الكتاب " المطالب العاجلة " التي تلح عليها الدوائر الاستشراقية وتدعو لبحثها من خلال " الدراسة العلمية العصرية " لجامع البيان، ومن هذه المطالب " تحديد وضبط دور هذا الكتاب في تشكيل إرثوذكسية أهل السنة " (١) .

لكن الذي يمكن أن نخرج به من حملة المستشرقين على " جامع البيان " أمران :

الأول : أنهم رأوا في هذه الحملة جزءاً من " الواجب " الذي ترتب عليهم بسبب موقفهم من تراث المبتدعة، فلكي يخلو المجال لهذا التراث لا بد من إبعاد مقابله الذي هو تفسير أئمة أهل السنة ومنه " جامع البيان " .

الأمر الثاني : أن جهل هؤلاء باللسان العربي جعل المعاصرين منهم لا يتوقفون عن ترديد كلام أسلافهم لعجزهم عن التعامل مع بقية التفاسير الأثرية المتداولة بين الناس اليوم .

المبحث الثالث : المنهج المقترح للتفسير عند المستشرقين

في منتصف القرن العشرين كثرت الكتابات الاستشراقية عن تفسير القرآن، واشتهر من المستشرقين المحسوبين على الدراسات القرآنية الفرنسي بلاشير والألماني بريترل، والإنجليزي أربري والأمريكي ذو الأصل الاسترالي جفري...؛ ونظراً لوفرة ما نشره

(1) Commentaire du Coran Abrege traduit et annote par Pierre Gode P 10 Editions d'art, Paris 1983, avec Preface de M. ARKOUN.

هؤلاء وغيرهم في مجال الدراسات القرآنية فقد خيل إليهم أنهم أصبحوا مؤهلين ليس للكتابة في اتجاهات التفسير ومناهجه فحسب، بل أيضاً في إمكانهم التصدي لتفسير القرآن نفسه .

ولإضفاء شكل من الموضوعية العلمية الكاذبة على مشروعهم للتفسير، وحتى لا يتهموا بالخوض بأرائهم الكليية وتصوراتهم المدخولة في القرآن وهم دعاة " البحث العلمي المنهجي " فقد تضافرت جهودهم من أجل اقتراح منهج استشراقي للتفسير، وحررت أصول هذا المنهج من قبل المستشرق كلود كايو الذي نشرها في الطبعة الإنجليزية للموسوعة الكونية، ويقوم هذا المنهج على ثلاث خطوات: الأولى: إعادة البحث في تاريخ المصحف الشريف . والثانية: إعادة تفسيره اعتماداً على ما يصطلح عليه بالعلوم الإنسانية المعاصرة كما هي بالغرب . الخطوة الثالثة: القيام بدراسة نقدية لأمّهات التفاسير التي يعتمدها المسلمون .

وللحقيقة لا يدري القارئ المسلم الذي له دراية بعلم التفسير وتاريخه كيف سينجز المستشرقون هذا المشروع؟ ومتى؟ ومن سيقوم بإيجازه والإشراف عليه؟ هذا دون أن نتساءل اليوم عن أسباب ذلك والغاية المقصودة منه؟!

المطلب الأول: دعوة المستشرقين إلى توثيق النص القرآني

وهذه هي الخطوة الأولى في منهجهم المقترح، وتقتضي مراجعة تاريخ المصحف الشريف حيث يتطلعون بالدرجة الأولى إلى

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

مرحلة جمع المصحف العثماني^(١)، والذي يتتبع الكتابات الاستشراقية بخصوص هذا الموضوع لا بد أن يستشف الغاية التي يرغبون الوصول إليها وهي تحديداً: إمكانية التصرف في القرآن الكريم حذفاً وزيادة وفي سبيل هذه الغاية اتجهت كتاباتهم كما لا يخفى على أحد إلى الاهتمام بثلاث مجالات لازالوا " يبحثون فيها حتى أيامنا الراهنة :

الأول منها: تتبع مصادر القراءات الشاذة والمنكرة والاحتفال بها والعمل على نشرها ..

الثاني: بذل الجهد لدى بقايا مختلف طوائف الضلال من باطنية العصر الراهن، وجمع تراثهم وأضاليلهم التي يدعونها على المصحف، واهتم المستشرقون ببقايا الإسماعيلية - على الخصوص - في شمال الهند ولبنان وجبال العلويين قرب اللاذقية بسوريا حيث استقرت الطائفة النصيرية منهم^(٢) .

(١) لإبراز موقفهم من المصحف الإمام يكون من الأفضل إيراد مقالة بلاشير عن الموضوع حيث قال: ((كان المنطلق مصحف أبي بكر فضموا إليه مقطوعات مبعثرة أو محفوظة غياباً فقط، وتم أخيراً إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة إحلاله محل جميع المصاحف الخاصة، على أن هذه الرغبة في إحلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكاً للقدسيات: وهو إتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الصحابة الوحي الذي جمع عن لسان محمد وفي حياته)) . بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه .. ص ٣١ .

(٢) اشتهر بتتبع فرق الباطنية المستشرق الفرنسي هنري كوربان، كما حاول جولد تسيهر - قبله - عبثاً أن يقف على شيء من ضلالات الباطنية وما ادعوه من زيادات على المصحف؛ وانظر مبحث: ((الزيادات على النص

المجال الثالث : تطلع المستشرقون من خلال هذا المشروع إلى إعادة تشكيل مصحف جديد يعتمد الترتيب النزولي حتى يتسنى لهم إدماج مختلف الضلالات فيه، ورغم استحالة هذا العمل لانقطاع الرواية في شأن زمن نزول الكثير من مقاطع القرآن، فإن هذا الترتيب النزولي استهوى - ولا زال - الكثيرين ممن تهفوا نفوسهم - التي غلبها التعصب - إلى إعادة تشكيل مصحف جديد للمسلمين !!!

أما الأسباب التي برر بها هؤلاء دعوتهم لمراجعة المصحف فهي :

أولاً: طريقة جمع المصحف على عهد عثمان رضي الله عنه حيث يريد المستشرقون ببحث المنهج الذي اتبعه المسلمون للتفريق بين القراءات المتواترة والمشهورة وغيرها من القراءات الشاذة التي استبعدت من المصحف، ويدعي هؤلاء أن الفصل في هذه المسألة لم ينته بعد ^(١).

ثانياً: أن المصحف العثماني الذي تلقاه المسلمون حتى اليوم لم يكن تدوينه كاملاً ، لذلك احتاج فيما بعد إلى آراء الفقهاء لبيان الناسخ والمنسوخ وذلك حرصاً على بعض التشريعات التي لم يتضمنها المصحف كعقوبة الرجم ^(٢).

= العثماني عند الشيعة)) ومبحث ((مصاحف كتبت في عهد عثمان باقية في عدة مواطن)) ضمن مذاهب التفسير من ٢٩٤-٢٩٨ .

(1) C.Gilliot, L'exege du Coran in Ency. Universalis, Cor 6P: 547.

(2) C.Gilliot, L'exege du Coran, Ency. Uni. Cor 6.P 548 .et Voir:

J.Burton, The Collection of The Quran, Cambridge 1977 .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

ثالثاً: أنه يجب علينا أن ندرس القرآن باعتباره تراثاً أدبياً، وبناءً على ذلك يرى المستشرقون الاستفادة من مختلف المناهج التي طبقت على التوراة والأنجيل وذلك في مجال دراسة القرآن بعد أن صيره جزءاً من التراث الأدبي للمسلمين^(١).

وهذا المشروع الاستشراقي لمراجعة المصحف الشريف لا يكاد يخفي غاياته وأهدافه، وهو لا يعدو كونه حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات للتخلص من القرآن الكريم وإزלתه من الوجود، ويأبى الله إلا أن يخلد كتابه ويحفظه ولو كره المستشرقون.

المطلب الثاني: مطالبة المستشرقين بنقد التفاسير القديمة

وعملية النقد التي يطلبها هؤلاء لاتعني إطلاقاً تطبيق مناهج النقد عند أئمة الرواية على آثار التفسير، كما فعل بعض أعلام المفسرين وكثير من محدثي المفسرين، كما أن هذا النقد لا يمكن أن يطال الاتجاهات المنحرفة التي شهدتها تاريخ التفسير؛ بل إن المستشرقين لايهمهم بالدرجة الأولى سوى نقد أمهات التفاسير الأثرية التي صنفها أئمة علماء أهل السنة، ثم بيان كيف أن علوم الإسناد لعبت دوراً أساسياً في تثبيت "أيدولوجية" أهل السنة عن طريق ربط الجماعة المسلمة بسلاسل من الرواة تنتهي إلى مختلف الأحاديث... " وفي هذا الموضوع نجد المستشرق كلود تكاويو قال: ^(٢).

(1) Gilliot, Ibid P 548, et J. Wausbrough, Quranic Studies, Oxford-univ. Press, Oxford 1977.

(٢) أجدي مضطراً لأن أسوق هذا النص رغم طوله حتى تبين للقارئ حقيقة

" إن عملية نقد مصنفات التفسير بالمأثور عند المسلمين يمكن أن تقودنا إلى الإسهام الإيجابي في مشروع إعادة تفسير القرآن، فأعلام المفسرين - في الواقع - هم أهم شاهد على الطريقة التي تشكلت بها الذاكرة الإسلامية المشتركة، إن تفسيراً أثرياً كتفسير الطبري نجدّه فضلاً عن شروحه الفلسفية والنحوية وشواهده الشعرية يجمع قدراً كبيراً من مرويات التفسير المنقولة بواسطة أكثر من خمس وثلاثين ألف سلسلة رجال، وهذا المصنف يمدنا بالطريقة التي تنتقل بها المرويات (الأحاديث)؛ هذه الأخيرة التي عملت دائماً على تجديد التصورات الوجدانية، وفي هذه البوتقة فإن المفسر التقليدي ليس مجرد جامع للمرويات يكتفي بتسجيل ثم نقل تلك الأحاديث لمن يأتي من بعده، بل أنه يرتب الأحاديث ويرجح فيما بينها ويدلي برأيه فيها ويعطي لتلك المرويات دلالة في التصور الإسلامي العام؛ على أن هذه الدلالة يتم تأكيدها وإثباتها من قبل المفسر بواسطة سلاسل الرواة التي يضمن بها تماسك " أيديولوجية " الجماعة المؤمنة؛ ولجوء المفسر إلى هذا النوع من الخطاب الذي يعتمد على إسناد الحديث يكشف لنا مختلف الإسقاطات التي وقعت في كتب التفسير، حيث كانت الرغبة متجهة لتكريس مرويات بعض الصحابة الذين خصتهم كتب التراث بسير أسطورية مثل ابن عم محمد - صلى الله عليه

= موقف المستشرقين من أحاديث التفسير عامة ومن علم الإسناد بصفة خاصة، مع التنبيه إلى أن الكلام بين عريضتين أضفته لضرورات الترجمة .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

وسلم - عبدالله بن عباس ت ٦٨هـ - رضي الله عنهما - على أن هذا النوع من الدراسة - التفسيرية - يتطلب منا أن نطرح من جديد السؤال عن العلاقة بين ماهو واقعي حقيقي وما كان من إبداع المخيلة، كما سبق أن طرح ذلك في مجال دراسة المجتمعات البدائية (الأنثروبولوجيا) والتاريخ الوسيط والقديم - بالغرب (١) .

انطلاقاً من هذا الموقف الاستشراقي الذي لا يكاد يخفي فساد طويته وخلفياته، يدرك الدارس الموضوعي أن الهدف النهائي من عملية نقد التفسير عند المستشرقين هو الطعن في جانب من السنة المشرفة (أحاديث التفسير) والنيل من عدالة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يفتح الباب على مصراعيه من أجل تبني هرطقات المبتدعة المنسوبة للتفسير، وهذا بحق هو جوهر الدراسة الاستشراقية للتفسير كما سيأتي توضيحه في المطلب اللاحق .

المطلب الثالث: تبني المستشرقين الدعوة لإعادة تفسير القرآن
تفسير القرآن علم له قواعده وآدابه وأصوله، ولا يمكن أن نجد

(1) Gilliot, Les recherches contemporaines, Ency. Vni, Cori. 6P: 548 .

أما مصطلح " الأيديولوجية " الوارد في النص فالمراد به في اللغات الغربية مجموع الأفكار والمعتقدات المرتبطة بمحبة أو مجتمع؛ واشتهر المصطلح في الفكر الفلسفي المعاصر بأنه يعني " الفكر غير المطابق للواقع "؛ وعبارة " أيديولوجية الجماعة المؤمنة " في النص كناية عن " عقيدة السلف وأهل السنة " حسب المفهوم الغربي .

علماء من العلوم - سواء كان يهتم بالدين أو لاعلاقة له بموضوعه - يخرج عن هذا الأصل العام في المعارف الإنسانية قاطبة .
كما أنه لا يوجد مجال في هذه الدراسة للإلماح إلى أصول علم التفسير وقواعده، لذلك نكتفي بالتأكيد والتذكير بهذه الأصول التي تُطلب في مظاهرها المختلفة.

والحركة الاستشراقية المعاصرة حين أرادت الخوض في تفسير القرآن لم تكن تغفل هذا الموضوع^(١)، لكنها أرادت أن تتجاوزته ظهرياً عن طريق الالتواء على هذه الأصول العلمية بدعوى الاستفادة - بدلاً من ذلك - من معطيات العلوم الإنسانية بالغرب، وتبعاً لهذه الدعوى تأسس منهج تفسير القرآن عند المستشرقين ابتداء من منتصف القرن العشرين على هذه المعطيات التي سبق للدوائر العلمانية (والتيارات اللادينية) في الغرب أن أخضعت لها تراثها الديني المحرف.

" إن تطور الدراسات القرآنية بالغرب في أواسط القرن العشرين قد حدث تحت تأثير التقدم الملحوظ في تفسير (الكتاب المقدس) وتأثير النظريات الأدبية، إن أثر العلوم الإنسانية وبخاصة علم دراسة المجتمعات البدائية (الأنثروبولوجيا) وعلم تاريخ الأديان

(١) بخاصة حين نعلم أنها عمدت إلى نشر كتاب " الإلتقان في علوم القرآن " وهو يتضمن في أبوابه مباحث عرضت لأصول التفسير، لكن يظهر أن وراء نشر هذا الكتاب مآرب أخرى سنعرض لها لاحقاً، وقد تم للمستشرقين نشر " الإلتقان " خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

بدأ ذلك الأثر يظهر في مجال تفسير القرآن بالغرب: مثل البحث عن دور الشعارات والرموز الدينية ودور الوجدان الديني ودور الأساطير المرتبطة بالدين...، ويمكننا أن نميز بين اتجاهين حديثين ظهرا في ميدان التفسير: الأول اهتم بتاريخ المصحف وتكوينه وجمعه وتحريره. الاتجاه الثاني: اهتم بإعادة تفسير القرآن عن طريق الاستفادة من الآليات التي توفرها مختلف العلوم الإنسانية، كما يتمسك هذا الاتجاه أيضا بالدراسة النقدية لأمّهات التفاسير القديمة، هذه الأخيرة التي تعتبر شاهداً على الطريقة التي تم بها التفاعل مع النص القرآني من أجل تشكيل الوجدان (التصور) الإسلامي في مراحل عدة من التاريخ، وهذا يعني أن الدراسة النقدية لهذه التفاسير تهدف إلى معرفة الطريقة التي تم بها تصور الإسلام، وكيف جاء هذا الدين، وأخيراً كيف تم تخيله في تصور المسلمين ووجدانهم⁽¹⁾.

والذي يظهر من خلال هذا النص أن المعتقد الذي يسعى المستشرقون لأجل تكريسه من خلال منهجهم المقترح لإعادة تفسير كتاب الله ينبي على ما يلي :

أولاً : أن القرآن الكريم إنما هو مجرد تليفيق من مصادر عدة استقى منها محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء به أمته، وفي بحث المستشرقين عن الكيفية التي جاء بها هذا الكتاب ومصدره تشعبت

(1) Gilliot, les recherches contemporaines, in Ency. Uni. Cor 6.

بهم الأراجيف ولم يتفقوا على مصدر بعينه (١) .

ثانياً: أن أحكام القرآن إنما هي مجموعة من التشريعات أدرجها فقهاء الإسلام ضمن تفاسيرهم دون أن تكون لها علاقة به، ومن ثم وجد ذلك التصور الذي ينظر إلى دلالة الآيات على أنها أحكام ملزمة، وهي في التصور الاستشراقي غريبة عن القرآن كما ظهر ذلك في كتابات جوزيف شاخت ت ١٩٦٩ م الذي أنفق عمره لهذه الغاية (٢) .

ثالثاً: أن ما يعتقد المسلمون ويتصورونه بخصوص موضوع القرآن وتفسيره إنما تم تكريسه بواسطة تلك الأحاديث المسندة التي تنتهي إلى طائفة من الصحابة الذين اختلقت لكل واحد منهم سيرة أسطورية تسمو به في نظر المسلمين .

والكتابات الاستشراقية عن التفسير تريد أن تسقط عدالة الصحابة رضي الله عنهم حتى يسهل عليها الطعن في إسناد أحاديث التفسير، كما تبحث - عبثاً - عن وسيلة لقطع الصلة بين القرآن وأحكامه، هذا - بطبيعة الحال - بعد إنجاز الخطوة الأولى التي هي إعادة النظر في تشكيل وجمع المصحف نفسه !!!

(١) سبق أن جمعت مختلف أراجيفهم في الموضوع ضمن دراسة توثيقية يسر الله نشرها قريباً .

(٢) انظر: رسالته عن " الشريعة الإسلامية " ضمن " تراث الإسلام " ص ١٤٤ ج: ٢ منشورات سلسلة " عالم المعرفة " الكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٨ .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

غير أن الذي يمكن أن يستغربه القارئ المتتبع هو ذلك الموقف الاستشراقي المزدوج من تراث طوائف المبتدعة المنسوب زيفاً إلى التفسير :

فمن جهة لا نكاد نجد هذا التراث يوضع على محك النقد الاستشراقي مع أمهات كتب العلم التي يتجرأ هؤلاء على الكلام فيها . ومن جهة ثانية لا يخفى على أحد احتفال الكثير من المستشرقين بتراث هؤلاء المبتدعة وبحثهم عنه وسعيهم الدؤوب من أجل إحيائه ونشره !!!

المبحث الرابع: تقييم كتابات المستشرقين عن التفسير

في مجال تقييم هذه الكتابات سيكون من المفيد محاولة استقراء مختلف المصادر التي يعتمدونها المستشرقون ويؤسسون على معطياتها آراءهم واستنتاجاتهم، كما يدخل ضمن عملية التقييم البحث عن المميزات والخصائص التي انطبعت بها هذه الكتابات، وإبراز مميزات الكتابات الاستشراقية عن التفسير من شأنه أن يساهم في بيان القيمة العلمية لدراسات المستشرقين في الموضوع .

على أنه أياً كانت مصادر الدراسات القرآنية عند المستشرقين فإن الحقيقة الموضوعية لا بد أن تظهر ما لم تحجبها ذاتية المستشرق، والمسألة التي لا يمكن إغفالها في هذا المجال هي أن الخلفية الدينية - وأحياناً التعصب - ظل ذلك حاجزاً يحول بين مختلف المستشرقين وبين البحث العلمي الموضوعي المتعلق بالقرآن وتفسيره .

المطلب الأول: مصادر المستشرقين في الكتابة عن التفسير

تختلف المصادر التي اعتمدها المستشرقون للكتابة عن التفسير تبعاً لعدة عوامل منها تفرغهم «للدراستات القرآنية» وإمامهم. يختلف اللغات الأوربية وأخيراً اطلاعهم على الآداب العربية؛ فالملاحظ أن أولئك الذين يكتبون في مختلف العلوم الإسلامية يطغى عليهم اختصار مؤلفات سابقهم؛ أما مسألة الإمام باللغات الأوربية فيظهر أثره بالنظر إلى أن إصدارات الحركة الاستشراقية المتصلة بالتفسير موزعة بين تأليف مكتوبة بالألمانية والفرنسية والإنجليزية، وترجمة هذه التأليف من إحدى هذه اللغات إلى أخرى قليل مقارنة بنشاط الترجمة في مختلف المعارف بالغرب..؛ وأما العامل الأخير وهو الاطلاع على الآداب العربية، فالمقصود بذلك ليس الإمام بها، إذ الغالبية العظمى من المستشرقين لا يتكلمون العربية أصلاً، وقلة منهم يفهمون ما يقال بالعربية بصعوبة، وحتى أكثرية أولئك الذين نشأوا وعاشوا في البلاد العربية لا تخفى الصعوبة التي تعترضهم حين يتعاملون مع الكتاب العربي .

وحين نبحث في المصادر المعتمدة لدراسة التفسير عند المستشرقين نجد بأن أكثرها مراجع وسيطة تتشكل بالأساس من تلك المؤلفات التي نشرها المستشرقون أنفسهم، وقد يحيل بعضهم إلى بعض مصادر ومراجع عربية .

تبعاً لذلك فالبحث في مصادر كتابات عن التفسير يتطلب

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

تقسيم هذه الكتابات إلى قسمين :

الأول منها: كتابات اعتمد مؤلفها الإحالة على مصادر ومراجع بالعربية لم تترجم إلى اللغات الأوربية، وهي قليلة نسبياً، من هذه الكتابات الاستشراقية ((مذاهب التفسير الإسلامي)) المنشور في ليدن ١٩٢٠م؛ ومنها أيضاً مادة ((قرآن)) ضمن الموسوعة الإسلامية، الطبعة الثانية مكتبة بريل ليدن ١٩٨١ م .

القسم الثاني: كتابات استشراقية اهتمت بالتفسير وكانت عالية على التراث الاستشراقي نفسه وهذا القسم هو الأكثر، وقد تجسد هذا القسم بخاصة في المادتين اللتين حررتا عن ((تاريخ التفسير)) وعن ((القرآن والدراسات المعاصرة)) ونشرتا ضمن الموسوعة الكونية طبعة ١٩٩٠م، حيث نجد لائحة مراجع المادة تتضمن عشرين مرجعاً، كلها بدون استثناء من كتابات المستشرقين أو تلامذتهم بشتى اللغات الأوربية .

ولتقييم مدى استفادة القسم الأول من هذه الكتابات من المصادر العربية فإنه مما لا يخفى على المتبع أن هذه الاستفادة كانت محكمة بتوجهات المستشرقين وتصوراتهم الخاصة للقرآن وتفسيره؛ فجولد تسيهر - مثلاً - في كلامه عن القراءات القرآنية ضمن الفصل الذي خصصه ((للمرحلة الأولى للتفسير)) نجده يحيل في توثيق القراءات إلى الكشاف للزمخشري^(١)، وهذا الكتاب رغم أنه من كتب التفسير

(١) انظر: على سبيل المثال: مذاهب التفسير ص ١٤ - ١، ص ٢١ - ٣، ص

إلا أنه ليس مصدراً للقراءات، وقد نجد الرمخشري يتعصب للقراءة المردودة والشاذة لا لشيء إلا لأنها تنصر مذهبه، فالمستشرق يستغل هذا الجانب؛ ولهذا الغرض أيضاً وجدنا المستشرقين ينشرون ((شواذ القراءات)) لابن خالويه و ((كتاب المصاحف)) لابن أبي داود .
وفي هذا السياق أيضاً وجدناهم يختارون من كتب علوم القرآن ((الإتقان)) للسيوطي حيث نشره النمساوي شيرنجرت ١٨٩٣م، وكان المستشرقون يستندون في مطاعنهم إلى تلك الروايات الواهية التي ذكرها السيوطي^(١) .

نخلص من خلال تتبع الأمثلة السابقة إلى أن رجوع بعض المستشرقين للمصادر العربية للتفسير كان محكوماً بتصوراتهم الخاصة عن القرآن، فلم تقدمهم هذه المصادر من الناحية المعرفية في شيء، وأحياناً نجدهم يتعمدون الكذب وينسبونه لهذه الكتب، وقد وجد من هؤلاء المستشرقين من لم يعرف العربية ولم يرجع إلى المصادر، لكنه وجد بين يديه ركاباً من كتابات أسلافه، فاعتمده وسعى

= ٢٣ هـ ١، ص ٢٤ هـ ٢ .

(١) نقل عن الشيخ محمد زاهد الكوثري ((أنه كان يدرس علوم القرآن لطلبة التفسير بجامعة استانبول بالاستانة، وكان يعنى بالاطلاع على ما يكتبه المستشرقون ليرد عليه وينبه إليه الطلبة، فكان يجد كثيراً من مطاعنهم يستندون فيها إلى تلك الآراء الشاذة، والروايات الساقطة في كتاب الإتقان، وكان هذا من أسباب حملته الشديدة على مؤلفه)) . وانظر في الموضوع: مقدمة ((الإحسان في تعقب الإتقان للسيوطي)) تأليف عبدالله بن الصديق، نشر دار الأنصار القاهرة .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

لأجل ترويجه بأخطائه المعرفية والمنهجية المتعمدة^(١).

المطلب الثاني: مميزات كتابات المستشرقين عن التفسير

انطبعت هذه الكتابات بمجموعة من المميزات ناتجة

بالخصوص عن سببين اثنين:

الأول: يتعلق بالمنطلقات المنهجية التي ابتدأ منها اهتمام المستشرق

بالتفسير وتشكل تبعاً لها تصوره عن القرآن وتفسيره لهذا الكتاب .

السبب الثاني: الأغراض والغايات التي لأجلها وقع هذا الاهتمام،

فهي ليست بالضرورة أغراض دعوية أو غايات هداية ..

اعتباراً لتلك المنطلقات والأغراض وجدنا كتابات المستشرقين

عن التفسير تنحو دائماً في اتجاه واحد وإن اختلفت سبلها .

ففي بداية القرن العشرين اتجه المستشرقون إلى تأصيل

الاتجاهات المنحرفة في التفسير ضمن تاريخ هذا العلم باعتبارها

إسهامات قديمة سابقة حتى يفتحوا الطريق لإضافة هرطقاتهم أيضاً

لعلم التفسير؛ ولا زال بعضهم يسعى لهذا التأصيل.

وفي منتصف هذا القرن - لما فشلت المحاولة الأولى - اتجهت

جهود المستشرقين لتبني بدعة مستحدثة وهي الدعوة إلى إعادة تفسير

القرآن اعتماداً على معطيات العلوم الإنسانية بالغرب بخاصة ((علم

(١) ويمكن للمتبع أن يلاحظ كيف ظلت أغلاط تسيهر في مجال القراءات -

التي لم يعرفها - تتكرر في مختلف كتابات المستشرقين، ونفس الشيء

نصادفه بخصوص تقسيم اتجاهات التفسير بالرأي حيث لازال كلام تسيهر

يتردد في الإنشائيات الاستشراقية .

دراسة المجتمعات البدائية)) (١).

وحين نرجع لمختلف كتاباتهم عن موضوع التفسير نجدها قد انطبعت بمجموعة من المميزات ظهرت بجلاء رغم تمسك بعضهم بإضفاء الطابع العلمي المجرد على هذه الكتابات .

١- الميزة الأولى لكتابات المستشرقين عن التفسير هي ((الانتقائية))، والأصل أن الدراسات والبحوث الإنسانية جمعاء تعتمد على التتبع ثم الجمع ثم الاستقراء واستخلاص النتائج؛ أما كتابات المستشرقين عن التفسير فهي تنطلق من تصور اقتنع به المستشرق أو أرادته ثم يسعى جاهداً من أجل تقريره وتدعيمه حتى يصبح ((حقيقة علمية))، وفي سعيه لذلك يلجأ لأي معطيات يقع عليها حتى ولو كانت لا أصل لها (٢).

(١) " علم دراسة المجتمعات البدائية " أو (الأنثروبولوجيا) موضوع بحثه أساطير الجماعات البشرية التي لم تؤثر فيها التغييرات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، ويريد المستشرقون وأتباعهم إسقاط هذا " العلم " على مجال الدراسات القرآنية وبالأخص " دراسة " موضوعات مثل: قصص الأنبياء، وتاريخ الأقسام السابقين الذين ورد الحديث عنهم في القرآن .

(٢) في كلام المستشرق " ويلتش " عن الوحي ونزول القرآن، ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته كان يفتش بنشاط عن تعاليم التوراة لأخذها من يهود يثرب، ودليله على ذلك أن القرآن تكلم عن إخفاء اليهود للتوراة لكن بعضه وصل إليه وإلى صحابته، والآية التي قصدها " ويلتش " وفهمها حسب هواه هي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ سورة الأنعام الآية ٩١ .

وانظر: A. T. Welch, Al KURAN, in encyclopedie de I'slam

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

٢- الميزة الثانية ((الذاتية))، ومردّها إلى تأثير الخلفية الدينية للمستشرق في كتاباته، فمعتقد المستشرقين أن القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، فيكتبون عنه باعتباره أثراً من الآثار الأدبية العربية، ولو وقع أن نظر المستشرق في القرآن بعد أن تجرد من خلفيته - اليهودية أو النصرانية - لحصل له مثل ما كان يحدث لأهل مكة الذين لم يعمهم التعصب زمن النبوة، فقد كان تجردهم يبصرهم بحقيقة القرآن، هذا بطبيعة الحال مع اعتبار جهل المستشرقين باللسان العربي المبين^(١).

٣- الميزة الثالثة ((السطحية)) أي فقدان أي عمق علمي أو

Tome 5P: 404 .

(١) لتصور مدى هذا الجهل أورد مثلاً لذلك وهو المستشرق بلاشير الذي وفد مع عائلته إلى المغرب عام ١٩١٥، وعمره خمس عشرة سنة، وفيه أنهى الثانوية ثم حصل على الإجازة في اللغة العربية من جامعة الجزائر، وتدرج في سلك التعليم بالمغرب حتى ١٩٣٥م. هذا المستشرق المتخصص في العربية الذي عاش بين أهل المغرب سنين عديدة يقلدهم حتى في الجلباب التقليدي.. نجده يقول عن عربية القرآن : ((وقلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن، فإننا معشر الاختصاصيين في الإسلاميات، حتى ولو بذلنا جهداً وافراً لبعث الجوّ الذي نمت فيه دعوة محمد، نكتشف تنافراً يتعذر دفعه بين هذا الجوّ وبين الشكل الذي اتخذته المصحف: فأمام هذا النص الشائك بصعوباته، الكثير الغموض، والمدهش بأسلوبه الإيجازي الذي يغلب عليه التلميح، نتوقف ملتجئين الفكرة الرئيسية التي تصل فيما بينها بمنطق كامل قصصاً وشروحات يصعب الكشف عن ترابطها..)) بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه.. ص ٤١ .

معرفي، وقد برزت هذه السطحية على مستوى مضمون كتابات المستشرقين عن التفسير وعلى مستوى المنهج .

فعلى مستوى المضمون لا تكاد هذه الكتابات تخفى فقرها المعرفي، وتجاهلها لبدهيات العلم هذا دون الكلام عن إهمالها الرجوع إلى المصادر المتراكمة باللغة العربية.

أما على مستوى المنهج فقد كرس هذه السطحية حرص المستشرقين على ((دراسة)) تفسير القرآن بمناهج غريبة عن هذا العلم استعاروها من خارج التراث العلمي الذي يهتمون به، فكان من نتيجة ذلك أنهم لم يستوعبوا علم التفسير ولم يستطيعوا أن يفهموا مناهج وطرق المفسرين^(١) .

٤- الميزة الرابعة ((الانقطاع)) ويظهر ذلك من خلال مختلف المشروعات التي يطرحها المستشرق (أو لفيف من المستشرقين)؛ فرغم اتفاقهم في المرحلة الأخيرة على إعادة تفسير القرآن اعتماداً على مختلف العلوم الإنسانية، إلا أن السبل تشعبت بهم بعد ذلك بسبب

(١) لذلك لم يكن غريباً أن يتحامل هؤلاء على علم الإسناد، فاستيعاب مناهج التفسير يقتضي الوقوف في مجمل القرآن عند الآثار ومادلت عليه، وأعمال الرأي الشرعي في المشكل من الآيات، ومعرفة الآثار، لا بد فيه من اعتماد الأسانيد المتصلة، ومن أعاب الأسانيد فهو ضرورة يطعن في رجال الحديث الذين هم شهودنا حتى الصحابة رضي الله عنهم الذين سمعوا الخبر، وهذه البدعة سببها: محاولة المستشرقين هدم علوم الرواية بخاصة وأن علم الجرح والتعديل بقواعده المعروفة أهم علم يختص بالرواية عرفته الإنسانية .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

تعدد هذه العلوم واختلاف مجالاتها ثم توسعها الكبير خلال العقود الأخيرة^(١)، واعتباراً لهذا التوسع فإن الكلام عن تفسير يعتمد معطيات هذه العلوم هو ضرب من الخيال ومحاولة متعمدة لدفع تفسير القرآن إلى فضاء التيه حتى يغدو كتاب الله محتملاً لكل ضلال .

وقد تجلت ميزة ((الانقطاع)) بوضوح من خلال مختلف كتابات المستشرقين، فلو قدر لنا اليوم أن نجمع مختلف ما نشره هؤلاء عن الموضوع فسنجد أنفسنا أمام سديم من ((الإنشائيات)) التي لا يجمع بينها شيء، خلا تلك الدعوة إلى إعادة النظر في التفسير.. هذا بإجمال أهم ما ميز كتابات المستشرقين عن التفسير، وإذا نظرنا إليه بعين الإنصاف ألفينا المميزات السابقة نقائص أو سلبيات أثرت على القيمة العلمية لهذه الكتابات، فكان حرياً بها تبعاً لذلك أن تظل محصورة في دوائر وأكاديميات المستشرقين وأذناهم من المسلمين الذين لم تتعرض لهم؛ واليوم لا نصادف في العالم الإسلامي أثراً لتلك الدعوة التي انطلقت قبل نصف قرن من أجل تفسير يعتمد

(١) لازالت " العلوم الإنسانية " تثير الكثير من الجدل والمناقشات حول ماهية هذه العلوم وميادها ومناهجها، ولعل ذلك راجع إلى جنوح المشتغلين بها - في أبحاثهم - إلى الجدل والافتراضات الفضفاضة والتعميمات، هذا فضلاً عن عدم اهتمامهم بالمسائل المنهجية وبخاصة المناهج التجريبية المتبعة في العلوم الطبيعية بالذات؛ وانظر في الموضوع: د. جابر الحديشي، "أزمة العلوم الإنسانية" ضمن دورية " الفكر العربي" عدد ٣٧، ٣٨، السنة السادسة ١٩٨٥م ص ١٠٩-١٣٧ .

معطيات علوم الإنسان بالغرب اللهم بعض التنف في تلك الرسائل الجامعية الموبوءة التي تم احتضانها بأكاديميات وجامعات المستشرقين في الغرب .

المطلب الثالث: أسباب انحراف كتابات المستشرقين

درج العلماء على تقسيم مختلف ما ألف عن تفسير القرآن إلى إسهامات مقبولة وهي المنضبطة علمياً، وكتابات منحرفة وهي التي تكون ناتجة عن جهل بالعلم أو هادفة إلى تقرير مذهب فاسد، وهذا التقسيم إنما وضعوه حين أرادوا الكلام عن اتجاهات التفسير وبدعه، والهدف منه تمييز تراث المبتدعة المنسوب إلى علم تفسير القرآن عن التفسير العلمية السليمة المنهج، فاختصت مؤلفات أهل البدع بمصطلح ((التفسير بالرأي المذموم)) كما عرفت تفاسير غيرهم بمصطلح ((التفسير بالرأي المحمود)) وهذا عندما يكون الكلام عن التفسير بالاجتهاد وإعمال العقل ..

وحين نرجع إلى كتابات المستشرقين عن التفسير وعن معالم منهجه اليوم كما يتصورون ذلك، نصادف بأنهم لا يكادون يختلفون في مسلكهم ودعوتهم عن نزغات أهل البدع قديماً، فقد قصدوا إلى التسور على العلم بغية هدمه وركبوا لتلك الغاية كل صعب وذلول؛ وإذا كان العلماء قديماً قد حددوا أسباب انحراف تفسير أهل البدع، فإن انحراف كتابات المستشرقين عن التفسير في العصر الراهن يرجع إلى عدة أسباب يمكن إجمالها في الآتي :

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

السبب الأول: فساد المعتقد، وهذا يلتقون فيه مع أسلافهم من المبتدعة قديماً، ومرد هذا الفساد تعصبهم للملهم ونحلهم؛ لذلك عميت بصائرهم عن إدراك دلائل ربانية القرآن، من ثم نظروا إلى هذا الكتاب باعتباره جزءاً من تراث الأمة التي تدين به لربها ..

السبب الثاني: سوء القصد، فالمعروف لدى طالب علم التفسير ودارسه أن من أهم الآداب التي يجب توفرها في المفسر والدارس لكتاب الله ((سلامة القصد))^(١) ، وأهم أسباب ضلال المبتدعة قديماً هو أنهم أرادوا تأصيل نزعاتهم من خلال التأليف في التفسير وتضمنه تلك الأهواء فضلو وأضلو، والمستشرقون حديثاً ولجوا ميدان التفسير ولم يبتغوا الحق، بل منهم من قصد إلى إضفاء تصورات نحلته عليه، ومنهم من قصد هدم هذا العلم أصلاً بشتى الوسائل وهذا مما لا يخفى في كتبهم .

السبب الثالث: فوضى المنهج، يعرف المنهج اختصاراً بأنه الطريقة التي يسلكها الدارس والباحث من أجل الوصول إلى حقيقة علمية سواء كانت تلك الطريقة تعتمد الاستقراء والتتبع أو كانت تعتمد التحليل والتقويم أو التجريب والملاحظة...؛ وغياب المنهج في أي مجال من مجالات البحث يؤدي إلى ما يمكن أن نصلح عليه ((بفوضى

(١) وفي ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء: ٤٥، ٤٦: الآياتان ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

المناهج))، وقد أدت هذه الفوضى في مجال ((أصول الدين)) قديماً إلى ظهور شتى الفرق والطوائف المتنافرة، كما أدت هذه الفوضى في مجال التفسير بالرأي إلى ظهور مختلف ((التفاسير المذهبية)) ..

وظهرت هذه الفوضى في كتابات المستشرقين عن التفسير لما اعتبروا القرآن تراثاً أدبياً تجرب عليه كل المناهج التي عرفتها البيئة الغربية، سواء كانت مناهج مادية أو وضعية، وسواء كان مجالها دراسة الأساطير أو دراسة الوقائع، وسواء كانت مناهج تاريخية أو كانت فلسفية.. لينتهي المطاف بالمستشرقين إلى فتح مجال التفسير لشتى ((المناهج)) التي عرفت في ميدان العلوم الإنسانية بالغرب بتناقضاتها وتضاربها وإخفاقاتها أيضاً^(١).

السبب الرابع: الجهل بالعلم، المعارف البشرية جميعها يتوقف استيعابها على الإحاطة بكلياتها وفروعها، ولا يوجد فرع منها يمكن تحصيله بدون طلب، والحرص على الطلب مع المواظبة والاستمرار يورث العلم، ثم إن جميع العلوم لها أصول وقواعد؛ والطريق الذي سلكه العلماء كيفما كانوا هو أولاً التحصيل من مصادره ومطانه ثم الانضباط لقواعد العلم وأصوله ..

(١) يمكن الرجوع بخصوص هذا الموضوع إلى :

- ادبث كيروزيل، عصر النبوية، ترجمة جابر عصفور، الطبعة الأولى بغداد ١٩٨٥م، الثانية الدار البيضاء ١٩٨٦م .
- جون ستروك، النبوية وما بعدها، ضمن سلسلة "عالم المعرفة" عدد ٢٠٦ فبراير ١٩٩٦م .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

فالذي لم يسلك طريق التحصيل أولاً جاهل ولو ادعى خلاف ذلك .

والذي لا ينضبط لقواعد العلم وأصوله وآدابه مخالف لمقتضى العلم - وإن سبق له تحصيل - فلا يؤمن أن يخلد إلى هواه ^(١) .

وحين نرجع إلى كتابات المستشرقين عن التفسير نجد بأنه اجتمع فيها الجهل بالتفسير والجهل بما يقتضيه هذا العلم، أما الأول فمظهره تجلّى من خلال ترديد الأجيال المتعاقبة من المستشرقين لتراث متقدميهم وأسلافهم فقط، وأما الجهل بمقتضى العلم فأول مظاهره عدم اكتراثهم بآداب وقواعد علم التفسير حيث تقرر في أوساطهم منذ عقود أن تفسير كتاب الله يمكن أن يزاوله حتى من يكفر بربانية القرآن أو من يبحث عن ((دلائل)) نسبته إلى البشر..

السبب الخامس: الجهل باللغة العربية وعلومها وآدابها، إذ أن مشاهيرهم لا يحسنون الحديث بالعربية ولا يستطيعون الحوار بهذه اللغة ولا استظهار شيء مكتوب بها، رغم أنهم عاشوا بين المتكلمين بالعربية خلال عهد الاستعمار ^(٢)، أما غير هؤلاء المشاهير فإن

(١) انظر كلاماً نفسياً للشاطبي عن هذه القاعدة ضمن المباحث التي خصها للفتيا في كتاب الموافقات ج ٤ ص ١٤٥، ١٤٤، دار الفكر بيروت بتعليق الشيخ محمد حسنين مخلوف .

(٢) يصدق هذا على مورييس ديمومبين تـ ١٩٥٧م، وقد عاش طويلاً بالجزائر، وعلى غاستوني فييت تـ ١٩٧١م، وقد قضى سنوات بالقاهرة..؛ ونجد أستاذ المستشرقين الفرنسيين سلفستر دوساسي تـ ١٩٣٨م، يصرح عندما

القطيعة بينهم وبين اللسان العربي لا جدال فيها إطلاقاً، ذلك أن متأخري المستشرقين تم تكوينهم بلغاتهم الأصلية ولم ينتقلوا أو يعيشوا في وسط الناطقين بالعربية ..

وأن من يراجع نظم التعليم العالي في الغرب يصادف ذلك الإصرار على محاربة جميع أشكال المنافسة للغة الوطنية أو القومية، ففي فرنسا - على سبيل المثال لا الحصر - يفرض على الباحث المتخصص في الآداب الإنجليزية أو الأسبانية أو غيرها أن يجر ويناقش أطروحته بالفرنسية رغم مجافاة ذلك للبحث العلمي^(١)، ونفس الشيء يفرض على المتخصص في فرع من فروع الدراسات الشرقية، ويتأزم أمر الباحث حين يكون موضوعه ((تحقيق)) مخطوط معين..؛ والخلاصة التي نصل إليها أن تكوين المستشرق مهما بلغ لا يرفع عنه الجهل باللغة العربية التي دونت بها كتب التفسير، وما دام حاله كذلك فلن يصل إلى مرحلة الاستفادة من هذه المصادر، فيظل تبعاً لذلك متوقفاً عند تكرار تلك ((الإنشائيات))

= سئل عمن علمه اللغة العربية قائلاً: " تريد أن تعلم إن كان لي بعض الشيوخ الذين تعلمت عليهم العربية ؟ وإني لأستطيع أن أؤكد لك أن معلمي الوحيد كان الكتاب، وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية، ولا حتى أن أفهم ما يقال بهذه اللغة، إذ لم تتح لي الفرصة في شبابي للتكلم بالعربية، ولا حتى الاستماع إليها ". د. المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ١٤٩ .

(١) يمكن الرجوع بخصوص نظام الدراسات العليا بفرنسا إلى القانون المنشور بأحد أعداد "الجريدة الرسمية" الفرنسية في يوليو ١٩٨٤ م .

تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين — د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس

التي يجدها مكتوبة بلغة يفهمها .

خاتمة الدراسة:

كانت المباحث السابقة عرضاً تحليلياً وتقومياً لكتابات المستشرقين عن موضوع تفسير القرآن، وقد كان من أولويات هذه الدراسة الاعتماد على مانشره المستشرقون عن التفسير في ((موسوعاتهم العلمية)) بالدرجة الأولى، نظراً للقيمة التي أعطيت لهذه الموسوعات في الشرق والغرب على السواء .

أما النتائج التي يمكن أن نخلص إليها من تتبع مطالب ومباحث

الدراسة فهي:

أولاً: أن الكتابات الاستشراقية عن التفسير حاولت في أول أمرها تأصيل تراث المبتدعة المنسوب لعلم التفسير، وذلك بجعله لوناً من ألوان هذا العلم؛ فلما ظهرت مختلف الدراسات المعاصرة بالعالم الإسلامي وبينت حقيقة هذا التراث، وكشفت عوارءه...، غير أكثر المستشرقين خطتهم، وظهرت في محافلهم دعوى ظنوها جديدة .

ثانياً: أن دعوة المستشرقين لإعادة النظر في التفسير قدموها في صياغة نظرية غير منضبطة حتى تتسع لهم ولمن سلك طريقهم من الخائضين في تفسير كتاب الله بمحض الهوى .

ثالثاً: أن " الطريقة " التي دعا المستشرقون لنهاجها في التفسير ظلت طيلة عقود من الزمن مجرد نظرية لم يستطيعوا هم ولا غيرهم تطبيقها، وكل ما نجد من كتاباتهم في التفسير مجرد " مقالات " في

التفسير الموضوعي يكون فيها المستشرق عالمة تماماً على " معجم آيات القرآن " .

رابعاً: أن دعوة المستشرقين لاعتماد معطيات العلوم الإنسانية بالغرب في مجال تفسير القرآن أملاها عليهم واقع عجزهم عن التعامل مع المصادر بسبب الجهل باللسان، بالإضافة إلى سعيهم الحثيث لهدم علم التفسير .

وختاماً نسأل الله السداد في القول والعمل والله تعالى أعلم

وأحكم .